الآيتان من 28 - 29

مظاهر قدرة الله بخلق الإنسان وإماتته وخلق الأرض والسّماء

﴿كَيْفَ تَكْفُرُونَ بِاللَّهِ وَكُنتُمْ أَمْوَاتًا فَأَحْيَاكُمْ ثُمَّ يُمِيتُكُمْ ثُمَّ يُحْيِيكُمْ ثُمَّ إِلَيْهِ تُرْجَعُونَ ﴿٢٨﴾ هُوَ الَّذِي خَلَقَ لَكُم مَّا فِي الْأَرْضِ جَمِيعًا ثُمَّ اسْتَوَىٰ إِلَى السَّمَاءِ فَسَوَّاهُنَّ سَبْعَ سَمَاوَاتٍ وَهُوَ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ ﴿٢٩﴾﴾.

أسباب النزول والمناسبة

المناسبة: بعد أن ذكر الله صفات الفاسقين وموقف الكفّار من القرآن، وجّه الخطاب إلى الكفّار في هاتين الآيتين على طريق الإنكار والتعجّب والتوبيخ على موقفهم وصفة كفرهم، بذكر البراهين الدّاعية إلى الإيمان: وهي النِّعم الدالّة على قدرته تعالى من مبدأ الخلق إلى منتهاه، من إحيائهم بعد الإماتة والإحياء، وخلق جميع الخيرات المكنونة في الأرض ليتمتّعوا بجميع ما في ظاهرها وباطنها، وخلق سبع سماوات مزيّنة بمصابيحَ ليهتدوا بها في ظلمات البرّ والبحر، أفبعد هذا كلّه يكفرون برسول الله محمّد ﷺ وبرسالته؟

المعنى العام

﴿كَيْفَ تَكْفُرُونَ بِاللَّهِ﴾: استفهام للتوبيخ والإنكار، والمعنى كيف تجحدون نعم الله المتوالية، ﴿وَكُنتُمْ أَمْوَاتًا﴾ أي: وقد كنتم نطفًا في الأرحام، ﴿فَأَحْيَاكُمْ﴾ أي: بنفخ الرّوح في أجسادكم، ﴿ثُمَّ يُمِيتُكُمْ﴾ عند انقضاء آجالكم، ﴿ثُمَّ يُحْيِيكُمْ﴾ عند البعث من القبور، ﴿ثُمَّ إِلَيْهِ تُرْجَعُونَ﴾ للحساب والجزاء يوم النّشور، ثمّ يسكنكم دار القرار، إمّا إلى الجنّة وإمّا إلى النّار، فهذه الآثار دالّة على باهر قدرته وتمام حكمته.

والمعنى أي هُوَ الَّذِي خَلَقَ لأجلكم ما استقرّ فِي الأَرْضِ جَمِيعًا، تنتفعون به في الظاهر قوتًا، ودواء لأبدانكم، ومتعة لنفوسكم، وتنتفعون به في الباطن بالتّفكر والاعتبار، وزيادة في إيمانكم وقوّة لإيقانكم، ثمّ استوى إلى السّماء فخلق سَبْعَ سَمَاوَاتٍ مستوية تامّة، ليس فيها تفاوت ولا خلل، تظلّكم بِجِرْمِها، وتضيء عليكم بشمسها وقمرها وكواكبها، ولكونه عالمًا بكنه الأشياء، لذلك خلقها على هذا النّمط الغريب والإتقان العجيب، وهذه الآية دالّة على أنّ الأرض خلقت قبل السماء.

لطائف الإشارات للسّلوك والتّزكية في الآيات

ما يستخلص من الآيات

في العقيدة

اعتقاد بطلان عقيدة التّقمّص -أي دخول الروح في جسد آخر بعد الموت وفق الأعمال -أو الكارما- عوضًا عن الحساب ثمّ الجنة أو النار- التي تخالف القرآن والسّنة

من اعتقد بالتّقمص فقد كفر بالله ورسوله وكتابه. أوضح تعالى أنّه خلق الإنسان روحًا بلا جسد ثمّ أدخل الرّوح في الجسد بعد مرور ١٢٠ يومًا من تكوّن الجنين، ثمّ يُخرج الرّوح من الجسد عند الموت، ثمّ يُعيد الرّوح الى الجسد بعد نفخة الصّور الثّانية- والصور فيه ثقوب بعدد أرواح العباد- وعندها يكون البعث والنّشور، فيُبعث العباد روحًا وجسدًا. فالإنسان يعيش حياتين: حياة الدنيا وحياة الآخرة، ويمرّ بموتتين؛ الأولى عندما خُلق روحًا قبل نفخ روحه في

الجسد، والثانية عندما تُقبض روحه، قال الله تعالى: ﴿قَالُوا رَبَّنَا أَمَتَّنَا اثْنَتَيْنِ وَأَحْيَيْتَنَا اثْنَتَيْنِ فَاعْتَرَفْنَا بِذُنُوبِنَا فَهَلْ إِلَىٰ خُرُوجٍ مِّن سَبِيلٍ﴾[1]

قال ابن عبّاس ﷺ: "كنتم أمواتًا في أصلاب آبائكم لم تكونوا شيئًا حتّى خلقكم، ثمّ يميتكم موتة الحقّ، ثمّ يحييكم حين يبعثكم، قال: وهي مثل قوله تعالى: ﴿أَمَتَّنَا اثْنَتَيْنِ وَأَحْيَيْتَنَا اثْنَتَيْنِ﴾"[2]. وقال الضّحاك عن ابن عبّاس ﷺ: كنتم ترابًا قبل أن يخلقكم فهذه ميتة، ثمّ أحياكم فخلقكم، فهذه حياة، ثمّ يميتكم فترجعون إلى القبور، فهذه ميتة أخرى، ثمّ يبعثكم يوم القيامة فهذه حياة أخرى - فهاتان ميتتان وحياتان فهو كقوله: ﴿كَيْفَ تَكْفُرُونَ بِاللَّهِ وَكُنتُمْ أَمْوَاتًا فَأَحْيَاكُمْ ثُمَّ يُمِيتُكُمْ ثُمَّ يُحْيِيكُمْ﴾[3].

اعتقاد أنّ البعث والنّشور يوم القيامة بالرّوح والجسد

عقيدة المسلمين أنّ جسد الإنسان هو نفسه ويُبعث به في الآخرة، يُعاد كما كان ثم تدخل الروح فيه فيقوم الإنسان بجسده وروحه للحساب.

ولمّا سئل الإمام الغزالي ﷺ عن هذا، أعطى المثل التالي: قال أرأيت إلى إنسان أعمى وإلى إنسان كسيح. فالكسيح رأى إنسانًا ثالثًا خبأ كنزًا له تحت الشجرة، فقال للأعمى: إني رأيت فلان خبّأ كنزًا هنا وأنا لا أستطيع أخذه لأني كسيح وأنت لا تستطيع أخذه لأنك أعمى. ما رأيك أنا نتعاون فتحملني لنسرق الكتر؟ جاءت الشرطة وحملتهم إلى القاضي ليحاسبهم. قال للأعمى: أنت سرقت؟ قال له الأعمى: أنا أعمى، كيف أسرق! فقال للكسيح: أنت سرقت؟ قال له: أنا كسيح لا أستطيع أن أتحرك فكيف أسرق! فردّ القاضي: أنتما تعاونتما معًا فسرقتما فعليكما الجزاء. وهكذا يقال يوم القيامة للروح والجسد، لأن الروح تقول أنا لا أستطيع أن أعصي أنا روح، والجسد يقول أنا بلا روح لا أستطيع المعصية، بلا حياة لا أستطيع شيئًا. فيقال: أنتما تعاونتما - الروح والجسد - على الكفر والعصيان، لذلك العقاب على الروح والجسد معًا أو النعيم على الروح والجسد معًا.

فعن ابن عبّاس ﷺ قال: خَطَبَ رَسُولُ اللهِ ﷺ فَقَالَ: «يَا أَيُّهَا النَّاسُ، إِنَّكُمْ مَحْشُورُونَ إِلَى اللهِ حُفَاةً عُرَاةً غُرْلًا» ثمّ قَالَ: ﴿كَمَا بَدَأْنَا أَوَّلَ خَلْقٍ نُعِيدُهُ، وَعْدًا عَلَيْنَا إِنَّا كُنَّا فَاعِلِينَ﴾[4][5].

وعن أبي هريرة ﷺ قال: قال رسول الله ﷺ: «لَيْسَ مِنَ الْإِنْسَانِ شَيْءٌ إِلَّا يَبْلَى، إِلَّا عَظْمًا وَاحِدًا وَهُوَ عَجْبُ الذَّنْبِ، وَمِنْهُ يُرَكَّبُ الْخَلْقُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ»[6]، وفي الحديث: «ثُمَّ يَقُومُ مَلَكٌ بِالصُّورِ بَيْنَ السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ، فَيَنْفُخُ فِيهِ فَتَنْطَلِقُ كُلُّ نَفْسٍ إِلَى جَسَدِهَا فتدْخُلَ فِيهِ.»[7].

من أسماء الله الحسنى: العليم

شرح اسم الله العليم:

صفةٌ من صفات الله ﷻ، وهو المحيط بجميع المعلومات ولا يشغله علمٌ عن علم. هو علّام الغيوب لأنّ الله تعالى يعلم ما كان

---

(١) سورة غافر، الآية: ١١.

(٢) رواه ابن أبي حاتم في تفسيره، عن ابن عبّاس رضي الله عنه، كتاب: سورة البقرة، باب: قوله: ﴿ثم إليه يرجعون﴾، حديث رقم: ٣٠٢.

(٣) رواه ابن أبي حاتم في تفسيره، عن ابن عبّاس رضي الله عنه، كتاب: سورة البقرة، باب: قوله: ﴿ثم إليه يرجعون﴾، حديث رقم: ٣٠١.

(٤) سورة الأنبياء، الآية: ١٠٤.

(٥) رواه البخاريّ في صحيحه، عن ابن عبّاس، كتاب: تفسير القرآن، باب: ﴿وكنت عليهم شهيدًا...﴾، حديث رقم: ٤٦٢٥.

(٦) رواه البخاريّ في صحيحه، عن أبي هريرة، كتاب: تفسير القرآن، باب: ﴿ويوم ينفخ في الصور...﴾، حديث رقم: ٤٩٣٥.

(٧) رواه الحاكم في المستدرك، عن عبد الله بن مسعود، كتاب وباب: الأهوال" قال الله تبارك وتعالى: ﴿ويوم ينفخ...﴾، حديث رقم: ٨٧٧٢، وهو صحيح.

وما يكون قبل كونه وما لم يكن لو كان كيف كان يكون. لا يعزب عنه مثقال ذرّة في الأرض ولا في السّماوات، يعلم دبيب النّملة السّوداء على الصّخرة الصمّاء في الليلة الظّلماء، ويعلم السّرّ وأخفى، ويطّلع على هواجس الضّمائر وحركات الخواطر.

التّعلّق باسم الله تعالى العليم:

بالاستمداد من علمه تعالى، والسّعي في طلبه بقدر الإمكان.

- من عرف أنّ الله تعالى هو العالِم بكلّ شيء، كان واثقًا به في كلّ شيء متوجّهًا إليه في كلّ شيء
- بالاكتفاء بعلمه: الله يعلم حالي ويعلم نيّتي ويعلم قصدي فلا أحتاج أن يعلم النّاس عنّي.
- أن تستحي أن يراك الله تفعل ما لا يحبّه ولا يرضاه. "إن لم تعلموا إنّي أراكم فالخلل في إيمانكم، ولو علمتم أنّي أراكم فلِمَ جعلتموني أهون النّاظرين إليكم".

في الأمر والنّهي

قاعدة: الأصل في الأشياء الإباحة: حلّية كلّ ما في الأرض من مطاعم ومشارب وملابس ومراكب إلّا ما حرّمه الدّليل الخاصّ من الكتاب أو السّنّة لقوله تعالى: ﴿خَلَقَ لَكُم مَّا فِي الأَرضِ جَمِيعًا ﴿٢٩﴾﴾.

في الأخلاق والآداب

التّخلُّق باسم الله تعالى العليم:

- أن تكونَ مُحبًّا للعِلْمِ النّافِعِ وَللعُلَماءِ.
- أن تطلبَ العِلْمَ مِنَ المَهْدِ إلى اللَّحْدِ، فكُن عالِمًا أو مُتَعَلّمًا، واحرِصْ في كُلّ يومٍ على أن تزدادَ عِلْمًا. وأن تحاولَ ربط ما تَتَعَلَّمُهُ بِأسماءِ الله تعالى.
- وأن تحاول أن تربط ما تتعلّمه بأسماء الله تعالى.

في السّلوك

الإشارة: كيف تنكرون ظهور نور الحقّ في الأكوان، وتبعدون عن حضرة الشّهود والعيان، وقد كنتم أمواتًا بالغفلة وغمّ الحجاب، فأحياكم باليقظة والإياب، ثمّ يميتكم بالفناء عن شهود ما سواه، ثمّ يحييكم بالرجوع إلى شهود أثره بالله، ثمّ إليه ترجعون في كلّ شيء لشهود نوره في كلّ شيء، وقبل كلّ شيء، وبعد كلّ شيء، وعند كلّ شيء **"كَانَ اللهُ وَلَا شَيْءَ مَعَهُ، وَهُوَ الآنَ عَلَى مَا عَلَيْهِ كَانَ"**.

يا عبادي خلقتُ الأشياء كُلَّها من أجلكم، الأرض تُقلّكم، والسماء تُظلّكم، والجهات تَكْتَنِفُكُمْ والحيوانات تخدُمكم، والنّباتات تنفعكم، وخلقتكم من أجلي، فكيف تميلون إلى غيري، وتنسَوْن إحساني وبرّي؟! الأشياء كلّها عبيدكم وأنتم عبيد الحضرة، "أنت مع الأكوان ما لم تشهد المكوّن، فإذا شهدت المكوّن كانت الأكوان معك". يا دنيا من خدمك فاستخدميه، ومن خدمني فاخدميه.

في السّيرة والشّمائل

في الإعجاز العلميّ

قَالَ اللهُ سُبْحَانَهُ: ﴿كَيْفَ تَكْفُرُونَ بِاللهِ وَكُنْتُمْ أَمْوَاتاً فَأَحْيَاكُمْ ثُمَّ يُمِيتُكُمْ ثُمَّ يُحْيِيكُمْ ثُمَّ إِلَيْهِ تُرْجَعُونَ ﴿٢٨﴾﴾. وقال تعالى: ﴿هُوَ الَّذِي خَلَقَ لَكُمْ مَا فِي الْأَرْضِ جَمِيعاً ثُمَّ اسْتَوَىٰ إِلَى السَّمَاءِ فَسَوَّاهُنَّ سَبْعَ سَمَاوَاتٍ وَهُوَ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ ﴿٢٩﴾﴾.

هاتان الآيتان الكريمتان تؤكّدان عددًا من الحقائق الكونيّة الثابتة. فقبل خلقنا، كنّا في عالم الغيب في علم الله تعالى، ولم يكن لنا وجود حقيقيّ. لكن بعد خلق آدم عليه السلام أوجدنا الله تعالى في صلب أبوينا آدم وحواء رضي الله عنهما. ولذلك تحدّث القرآن الكريم عن ﴿وَكُنْتُمْ أَمْوَاتًا﴾ بمعنى أنّنا لم يكن لدينا وجود مادّيّ قبل الخلق. فتعدّ عمليّة الخلق من أعظم النعم التي منّ الله بها علينا. أمّا الموت، فيعدّ من أعظم الحقائق التي نشهدها في حياتنا، فكلّ شيء يموت سوى الله سبحانه وتعالى، الجمادات والنباتات والحيوانات والبشر، كلّ مخلوق له أجلٌ محدّد ثمّ يميته الله تعالى. وهذه الآية تؤكّد على حتمية البعث بعد الموت. ويستشهد ربّنا تبارك وتعالى على هذا الغيب بواقع في وجودنا وحياتنا، فيقول تعالى: ﴿هُوَ الَّذِي خَلَقَ لَكُمْ مَا فِي الْأَرْضِ جَمِيعًا ثُمَّ اسْتَوَىٰ إِلَى السَّمَاءِ فَسَوَّاهُنَّ سَبْعَ سَمَاوَاتٍ وَهُوَ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ﴾.

لقد شغلت قضيّة سبق خلق الأرض لخلق السماوات أو العكس المسلمين وخاضوا فيها طويلاً حتّى حسمها العلم الحديث، مع أنّ القرآن الكريم حسمها من قبل ولكن قدامى المفسّرين لم يستطيعوا فهم ذلك في الأزمنة السابقة، فقد قال تعالى للسماوات والأرض: ﴿ائْتِيَا طَوْعاً أَوْ كَرْهاً قَالَتَا أَتَيْنَا طَائِعِينَ﴾[1] وعلم الفلك يؤكد أنّ كل أجرام هذا الكون الأرض وما حولها من سماوات وما فيهنّ مرتبط ببعضه ارتباطًا وثيقًا بضوابط فائقة الدقّة، من حيث الكتل والأحجام والمسافات البينيّة وسرعة الدوران، كلّ هذا النظام لو اختلّ لجزء من الثانية لانهار هذا الكون، لذلك لا بدّ لنا من التسليم بأنّ خلق السماوات والأرض تمّ في لحظة واحدة كما علّمنا ربّنا تبارك وتعالى، ولكنّ القرآن يشير والعلم يلمّح إلى حقيقة أنّ الله تعالى خلق أرضًا واحدة ثمّ مايزها إلى سبع أرضين، وخلق سماء واحدة في الوقت نفسه، ثمّ مايزها إلى سبع سماوات، وأنّ تمايز الأرضين السبع كان سابقًا، على تمايز السماوات السبع، وهذا ما أوضحته هذه الآية الكريمة وهي حقيقة لم يصل الإنسان إلى فهمها إلا في العقود المتأخّرة من القرن العشرين.

فحين انفصلت الأرض عن الشمس لم تكن سوى مجموعة غازات ككومة من الرماد، ولم يكن فيها شيء أثقل من السيليكون والألومنيوم، وبحكم كثافة الحديد العالية اخترق كومة الرماد هذه واستقرّ في قلبها وانصهر وصهر ما حوله ومايزها إلى سبع أرضين؛ لبّ صلب داخلي، أغلبه من الحديد والنيكل، ثمّ لبّ سائل له نفس التركيب ثمّ أربعة أوشحة متميّزة تتناقص فيها نسبة الحديد باستمرار من الداخل إلى الخارج، ثمّ الغلاف الصخريّ للأرض، لذلك نقول إنّ تمايز الأرض الأولى إلى سبع أرضين كان سابقًا لتمايز السماء الأولى إلى سبع سماوات.

فالأرض أصبحت صالحة للحياة ولاستقبال الإنسان بعد تكوّن الغلاف الصخريّ والغلاف الجويّ وخلق النباتات والحيوانات مباشرة بينما تمايز السماء إلى سبع سماوات جاء بعد ذلك لصغر حجم الأرض وضخامة حجم السماوات

(١) سورة فصّلت، الآية: ١١.

الّتي بقيت تتوسّع فقد قال تعالى: ﴿وَالسَّمَاءَ بَنَيْنَاهَا بِأَيْدٍ وَإِنَّا لَمُوسِعُونَ﴾[1]، وما نحتاجه لنعيش هو السماء الدنيا فقط التي زيّنها ربّنا تبارك وتعالى بالنجوم والكواكب فقال سبحانه: ﴿وَلَقَدْ زَيَّنَّا السَّمَاءَ الدُّنْيَا بِمَصَابِيحَ﴾[2]، والمصابيح: هي النُّجوم.

والملاحظ أنّ الكواكب الصخريّة في المجموعة الشمسيّة هي الكواكب الأربعة الأقرب للشمس: عطارد، الزهرة، الأرض والمريخ، أمّا الكواكب الخارجيّة فكلّها كواكب غازية تشبه تمامًا أرضنا في بداية خلقها وقد أبقاها ربّنا تبارك وتعالى كذلك لتكون شاهدًا لله الخالق بطلاقة القدرة.

هذه الحقائق العلميّة لم يصل إليها الإنسان إلا في العقود المتأخّرة من القرن العشرين، تشهد لهذه الآيات القرآنيّة حقيقتها وصدقها، وأنّ القرآن الكريم لا يمكن أن يكون صناعة بشريّة بل هو كلام الله الخالق الذي أنزله بعلمه على خاتم أنبيائه ورسله، وحفظه بعهده حتى يبقى القرآن شاهدًا على الخلق أجمعين أنه كلام رب العالمين، وشاهدًا للنبي الخاتم ﷺ الذي تلقاه بالنبوّة والرسالة.

في أشراط السّاعة

في الأدعية والأذكار

اللَّهُمَّ استعملنا فيما يرضيك عنّا ووفّقنا لما طلبته منّا، اللَّهُمَّ استخدمنا ولا تستبدلنا.

(١) سورة الذاريات، الآية ٤٧.
(٢) سورة الملك، الآية: ٥.